M.Ü. İLÂHİYAT FAKÜLTESİ VAKFI YAYINLARI Nu: 261

BÜYÜK TÜRK BİLGİNİ

İMÂM MÂTÜRÎDÎ VE MÂTÜRÎDÎLİK

Milletlerarası Tartışmalı İlmî Toplantı

22 - 24 Mayıs 2009 İstanbul

İstanbul 2012

24. TEBLİĞ

İMÂM MÂTÜRÎDÎ'NİN İSLÂM İNANCINI TEMELLENDİRMEDEKİ METODU

Dr. Belkāsım el-Gālî, Şârika Üniversitesi, BİRLEŞİK ARAP EMİRLİKLERİ

ÖZET

İmâm Mâtürîdî İslâm düşüncesinin büyük simalarından biri olup, müslümanların büyük çoğunluğunun akideyle ilgili bazı hususları reddetmesi, tevilde aşırıya kaçması, ve görüşlerini kabul ettirme hususunda devlet otoritesini de arkasına alması gibi sebeplerle Mu'tezile'den uzaklaştığı bir dönemde yaşamıştır. Öyleki bu dönemde Mu'tezile'nin genel müsmüman kitleden farklı düşündüğü bu gibi konuları bu kitle -Ehli sünnet- adına çözüme kavuşturacak Ahmed b. Hanbel'den sonra güçlü bir sima çıkmamıştır. Ahmed b. Hanbel yanlıları içinde de katı görüşler ortaya çıkmış ve öyleki teşbîh ifade eden âyetler hakiki anlamı üzerine alınmaya başlanmıştır. Bu da İmâm Mâtürîdî gibi aklı dinin anlaşılmasında daha etkin kullanacak, kelâm alanı kadar, fıkıh ve usûl alanında da söz sahibi bir simanın gelmesine olan ihtiyacı artırmıştı. Onunla birlikte İslâm dünyasının önemli bir kısmını oluşturan Hanefî çevrelerde akide alanındaki resmî mezhep Mâtürîdîlik olmuş ve bu zamanımıza kadar böyle devam etmiştir.

Taşköprüzâde'nin dediği gibi Ehl-i sünnet kelâm ilminin İmâm Eşarî birlikte iki kurucusundan biri İmâm Mâtürîdî olmasına ve onun doktrinin Ebû Hanîfe'nin akide anlayışı üzerine kurulmasına rağmen, Mâtürîdî, Eşarî'nin gördüğü ilgiyi görmemiştir.

İbn Asâkîr şöyle der: Bütün Mâlikîler, Şâfiîlerin dörte üçü, Hanefîlerin dörtte biri, ve bazı Hanbelîler Eşarîdir. Mâverâünnehr'de, Türk ülkelerinde, Afganistan, Hindistan, Çin ve bunların komşu bölgelerinde Hanefîlerin üçte ikisi Mâtürîdîdir.

Bu çalışmamızda önce İmâm Mâtürîdî'nin hayatı, hocaları, öğrencileri, eserleri ve hakkındaki kaynakların azlığı gibi konuları ele alıp sonrasında, ulûhiyet konusundaki tavrını inceleyeceğiz. O, bu konuları derinliğine incelemesi ve kendi bölgesindeki senevî dinler ve felsefî akımlara karşı İslâm inancını savunmasının da etkisiyle özel önem verdiği bu konulara parallel olarak kitabını da "Tevhîd" adıyla isimlendirmiştir. Daha sonra da onun peygamberlik ve iman konularındaki görüşlerini sunup, İmâm Mâtürîdî'nin görüşlerinin genel esaslarını tespit ederek çalışmamızı sonlandıracağız.

منهج الماتريدي في إثبات العقيدة الإسلامية

د. بلقاسم محمد الغالي
جامعة الشارقة.

ملخص البحث

الماتريدي أحد أئمة أهل السنة، وحامي حماها، وعلم من أعلام الفكر الإسلامي، وقد كان من الفطاحل الذين زانوا القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري، وذلك عندما نقم جمهور المسلمين على المعتزلة بسبب نزعتها المغالية، وإنكارها لمسائل عقدية واضحة: كرؤية الباري سبحانه وتعالى، وإفراطها في التأويل، وردّها لأحاديث صحيحة، واعتمادها على السلطة لفرض آرائها بالقوة في محنة خلق القرآن.

وفي ذلك العصر لم تظهر بين أهل السنة بعد أحمد بن حنبل شخصية علمية قوية يكون لها الفصل فيما أُشْكِلَ من مثل هذه المسائل؛ إذ سرت بينهم نزعة التصلب، وحاول بعضهم حمل آيات التشبيه على حقيقتها.

لذلك كان الإسلام يومئذ في حاجة ملحة إلى ظهور شخصية تأخذ بالسمع والعقل، ووجدت هذه الشخصية المطلوبة في شخص أبي منصور الماتريدي، فكان «علم الهدى» متكلماً بارعاً ، وأصولياً ماهراً، وفقيهاً حراً، لا يقل شأناً عن أبي الحسن الأشعري الذي ظهر في هذا العصر بالذات.

وقد وجدت آراء أبي منصور صدى لدى المذهب الحنفي، فكانت العقيدة الرسمية على مدى عشرة قرون، ولا تزال تسود جزءاً كبيراً من العالم الإسلامي حتى الآن.

وهو مؤسس الفرع الثاني لعلم الكلام السني، يقول طاش كبري زاده في هذا المعنى:»اعلم أن رئيس أهل السنة والجماعة في علم الكلام رجلان: أحدهما حنفي، والآخر شافعي، أما الحنفي فهو أبو منصور الماتريدي، وأما الشافعي فهو أبو الحسن الأشعري»[1214] .

وقد حظي الفكر الأشعري باهتمام القدامى والمحدثين، بينما أهمل الماتريدي إهمالاً غير لائق؛ لذلك لم يدرس دراسات مستقلة حتى الآن، بالرغم من أن المدرسة الماتريدية تمتد جذورها إلى أبي حنيفة، واضع اللبنات الأولى لهذه العقيدة السنية التي انتصر لها كثير من الأعلام، وقد سادت في الأقاليم الشرقية، وفي آسيا الوسطى لدى أتباع المذهب الحنفي، بينما انتشر المذهب الأشعري في الأقاليم المتوسطة كالشام ومصر، ثم بلاد المغرب العربي لدى أتباع الشافعية والمالكية.

يقول ابن عساكر:»فالمالكية كافة، وثلاثة أرباع الشافعية، وثلث الحنفية، وقسم من الحنابلة، على الطريقة الأشعرية، والثلثان من الحنفية في ديار ما وراء النهر، وبلاد الترك والأفغان والهند والصين وما ولاها على الطريقة الماتريدية»[1215] .

1214 طاش كبري زادة، (أحمد بن مصطفى ت968هـ) ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق: كامل بكري، وعبد الوهاب أبو النور، (القاهرة: دار الكتب الحديثة 1968) ج2، ص152-151.

1215 ابن عساكر (أبو القاسم علي بن حسن ت 561هـ)، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، (دمشق: مطبعة التوفيق 1347هـ)، ص16.

وقد اقتضت خطة البحث أن يكون تقسيمه إلى أربعة مباحث وخاتمة.

عالجت في المبحث الأول حياته، وشيوخه، وتلاميذه، ومؤلفاته، وخصائص ثقافته، وشحُ المصادر والمراجع في الحديث عنه.

وقد عقدت المبحث الثاني لقضايا الألوهية، والأسباب التي دفعته إلى الإفاضة في هذه القضية حتى سمّى كتابه «التوحيد» ؛ نظراً لما كانت تعج به منطقته من ديانات ثنوية، وآراء فلسفية، فبسط القول في الردود عليها.

وأما المبحث الثالث فكان بعنوان «الإنسان» وحاجته إلى النبوة، ومدى خلق أفعاله في خضم الآراء المتباينة في هذا الشأن.

وأما المبحث الرابع فقد تناولت فيه الإيمان والاستثناء فيه وقضاياه المختلفة.

وستركز خاتمة هذا المبحث حول أهم النتائج التي يمكن استخلاصها من فكر الماتريدي، ومنزلته في الفكر السني، والأثر الذي أحدثه كرائد روحي من رواد مدرسة عقيدية هي العقيدة الماتريدية وماتمتاز به من مميزات.

والله أسأل أن ينفع بهذا البحث كل راغب في الاستلهام من هذه الشخصية الفذة «الماتريدي» ما يضيء طريقنا، كما أسأله جل وعلا أن يوفقنا إلى ما فيه رفعة لأمجادنا، وبعث لنهضتنا، إنه خير مسؤول وأفضل مأمول.

الماتريدي أحد أئمة أهل السنة، وحامي حماها وعلم من أعلام الفكر الإسلامي، وقد كان من الفطاحل الذين زانوا القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري، وذلك عندما نقم جمهور المسلمين على المعتزلة بسبب نزعتها المغالية، وإنكارها لمسائل عقدية واضحة: كرؤية الباري سبحانه وتعالى، وإفراطها في التأويل، وردها لأحاديث صحيحة واعتمادها على السلطة لفرض آرائها بالقوة في محنة خلق القرآن.

وفي ذلك العصر لم تظهر بين أهل السنة بعد أحمد بن حنبل شخصية علمية قوية يكون لها الفصل فيما أشكل من مثل هذه المسائل، إذ سرت بينهم نزعة التصلب، وحاول بعضهم حمل آيات التشبيه على حقيقتها.

لذلك كان الإسلام يومئذ في حاجة ملحة إلى ظهور شخصية تأخذ بالسمع والعقل، ووجدت هذه الشخصية المطلوبة في شخص أبي منصور الماتريدي، فكان "علم الهدى" متكلما بارعا، وأصوليا ماهراً، وفقيها حرا، لا يقل شأنا عن أبي الحسن الأشعري الذي ظهر في هذا العصر بالذات.

وقد وجدت آراء أبي منصور صدى لدى المذهب الحنفي، فكانت العقيدة الرسمية على مدى عشرة قرون، ولا تزال تسود جزءا كبيرا من العالم الإسلامي حتى الآن.

وهو مؤسس الفرع الثاني لعلم الكلام السني، يقول طاش كبري زاده في هذا المعنى: «اعلم أن رئيس أهل السنة والجماعة في علم الكلام، رجلان: أحدهما حنفي، والآخر شافعي، أما الحنفي فهو أبو (منصور الماتريدي، وأما الشافعي فهو أبو الحسن الأشعري»)[1216].

1216 طاش كبري زادة، (أحمد بن مصطفى ت 968 هـ)، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق: كامل بكري، وعبد الوهاب أبو النور، (القاهرة: دار الكتب الحديثة 1968) ج2، ص152-151.

وقد حظي الفكر الأشعري باهتمام القدامى والمحدثين، بينما أهمل الماتريدي إهمالا غير لائق، لذلك لم يدرس دراسات مستقلة حتى الآن ، بالرغم من أن المدرسة الماتريدية تمتد جذورها إلى أبي حنيفة، واضع اللبنات الأولى لهذه العقيدة السنية التي انتصر لها كثير من الأعلام، وقد سادت في الأقاليم الشرقية، وفي آسيا الوسطى لدى أتباع المذهب الحنفي، بينما انتشر المذهب الأشعري في الأقاليم المتوسطة كالشام ومصر، ثم بلاد المغرب العربي لدى أتباع الشافعية والمالكية.

يقول ابن عساكر: "فالمالكية كافة، وثلاثة أرباع الشافعية، وثلث الحنفية، وقسم من الحنابلة، على الطريقة الأشعرية، والثلثان من الحنفية في ديار ما وراء النهر، وبلاد الترك والأفغان والهند والصين وما ولاها (على الطريقة الماتريدية)[1217].

وقد تم تقسيمه إلى مبحثين وخاتمة.

حيـاتـه

نسبـه:

محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي السمرقندي. وقد رأى مرتضى الزبيدي في بعض المصادر، زيادة محمد بعد محمود. أما البياضي فقد رفع نسب الماتريدي إلى أبي أيوب الأنصاري الصحابي الشهير.

لا نعرف شيئا عن أسرته، عدا ما ذكره الدكتور فتح الله خليف، من ان المستشرق تريتون عثر على كتاب نقض المبتدعة لأبي القاسم اسحاق بن محمد الماتريدي (ت 342 هـ) وظن أنه ربما كان شقيق الماتريدي.

ماتريـد:

والماتريدي نسبة إلى ماتريد (بضم التاء أو فتحها) ويقال لها ماتريت، قرية قرب سمرقند، وقد عبرت عنها المصادر بمحله ، زارها السمعاني غير مرة وقال: "قد تخرج منها جماعة من الفضلاء" وتابعه بنفس العبارة ياقوت الحموي، وابن الأثير الجزري.

سمرقنـد:

وأحيانا ينسب أبو منصور إلى سمرقند، وهي أهم مدينة في "ما وراء النهر" قديما وحديثا.

وقد دمرها شمر، ثم أعاد بناءها الاسكندر المقدوني في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، وقال: "كل ما سمعت عن محاسنها صحيح، باستثناء أنها أجمل مما تصورت" وهي ذات موقع جميل على نهر زارافشان. وقد وصفها الرحالة بأنها جنة بحق، وشبهها بعضهم بالياقوته، قال ابن خرداذبة: "كأنها السماء للخضرة، وقصورها الكواكب للاشراق، ونهرها المجرة للاعتراض، وسورها الشمس للأطباق" وقال أيضا: "ليس في الأرض مدينة أنزه ولا أطيب، ولا أحسن مستشرفا من سمرقند" وقال الأصطخري في المسالك والممالك واصفا خيراتها: "بأنها أزكى بلاد الله وأحسنها أشجارا وثمارا، ومياهها أعذب المياه وأبردها، وأخفها، وفاكهتها من كثرتها ما يزيد على سائر الآفاق، حتى ترعاها لوفرتها الدواب".

1217 ابن عساكر (أبو القاسم علي بن حسن ت 561هـ)، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، (دمشق: مطبعة التوفيق 1347هـ)، ص 16.

في مثل هذه المدينة الرائعة باتفاق جميع الرحالة العرب والأروبيين من قدامى ومحدثين نشأ أبو منصور الماتريدي، ولا يخفى ما للبيئة الجغرافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية من تأثير في نمو الشخصية الإنسانية.

مولـده:

في تاريخ المفكرين والعظماء كثير من الاختلاف، خاصة في تواريخ الميلاد، وهذا ما حدث لأبي منصور، فلم تذكر سنة ميلاده كتب الطبقات كطبقات الحنفية كابن أبي الوفاء في "الجواهر المضيئة"، وعبد الحي اللكنوي في "الفوائد البهية"، وعبد الكريم السمعاني في "الأنساب"، والقاسم بن قطلوبغا في "تاج التراجم"، وابن كمال باشا في "طبقات الحنفية". بل إن المتكلمين ممن نصروا مذهب الماتريدي كأبي المعين النسفي وعمر النسفي ونور الدين الصابوني مروا على صاحبهم مرورا عابرا "وأهملوه اهمالا غير لائق" على حد تعبير عبد الرحمن بدوي ولم يشر إليه ابن النديم بينما أشار إلى معاصره الطحاوي، كما لم يتحدث عنه ابن العماد ولا الصفدي ولا ابن خلدون في فصل علم الكلام في المقدمة، وأهمله جلال الدين السيوطي في "طبقات المفسرين" بالرغم من أنه معدود من أكبر المفسرين وابن حزم في "الفصل" تحدث عن الأشعري ورد عليه بينما أغفل الماتريدي، وكذلك الشهرستاني فإنه قد تحدث عن أبي حنيفة وعده من المرجئة، ولكنه لم يشر إلى أبي منصور. فما سبب هذا الإهمال؟

أولا: لعل أهم الأسباب هو بعد الماتريدي عن مركز الخلافة إذ نشأ وتربى في منطقة آسيا الوسطى.

ثانيا: لم تتدعم المدرسة الماتريدية كما تدعمت الأشعرية بقوية سياسية، مكنتها من النصر، خاصة بعد أن أنشا نظام الملك الوزير السلجوقي في المدارس النظامية التي أسسها في نيسابور وبغداد منابر عامة للعقيدة الأشعرية، عند ذاك أحرزت الفوز النهائي على خصومها، فأخذت تزداد حظوة بالنجاح وانتشرت في بلاد فارس على أيام السلاجقة ثم في مصر والشام على عهد المماليك والأيوبيين وأخيرا في المغرب على عهد الموحدين وفي مقدمتهم ابن تومرت.

والملاحظ أن هناك ثلاث قوى سياسية قد أسهمت في تركيز العقيدة الأشعرية هي: نفوذ السلجوقيين خاصة نظام الملك في فارس والعراق، ونفوذ الأيوبيين والمماليك في الشام ومصر ونفوذ الموحدين بالمغرب، فصارت الأشعرية بذلك العقيدة الرسمية.

ثالثا: تلعب المذاهب الفقهية دورا رئيسيا في نشر الآراء الاعتقادية، والمذهب الأشعري قد نصره مذهبان فقهيان هما المالكية والشافعية، بينما شاعت آراء الماتريدي على يد علماء المذهب الحنفي فحسب.

رابعا: كان أتباع الأشعري كالباقلاني والجويني والغزالي في مركز الخلافة فتأتي لهم أن يتتلمذ عليهم وافدون كثيرون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ثم يعودون إلى بلدانهم لينشروا تلك الآراء. بينما علماء الأحناف من الماتريدية لم يكن لهم تلاميذ بتلك الكثافة التي كانت لغيرهم، رغم أنهم معدودون من أفذاذ عباقرة العالم الإسلامي.

وأرجح الروايات أن الماتريدي ولد سنة 238هـ، لأن أستاذه محمد بن مقاتل الرازي توفي سنة (248 هـ 862م) وهي حقيقة مستنتجة من وفاة أحد شيوخه ذلك لأن سن الدراسة ينبغي أن لا يقل عن عشر سنوات للأخذ عن هذا الفقيه المحدث.

وفاتـه:

في وفاة منصور اختلاف هين، وليس كما هو الشأن في ميلاده، فكتب الطبقات والتراجم تكاد تتفق على أنه توفي سنة (333هـ/944م). لكن صاحب "مفتاح السعادة" يذكر بصيغة التضعيف "وقيل سنة ست وثلاثين وثلاثمائة" وقد تابعه بنفس الصيغة بعض الباحثين في "طبقات الحنفية".

كما أن أبا الحسن الندوي ذكر أنه توفي (سنة 332هـ)، ولعله قد استقى هذا الخبر من كتاب "الفقه الأكبر" الذي لم تثبت نسبه شرحه إلى الماتريدي إو كتاب "إشارات المرام" للبياضي.

وأرجح الروايات في وفاة أبي منصور سنة (333هـ/944م)، وقبره بسمرقند لأن أغلب كتب طبقات الحنفية تجمع على هذا التاريخ.

مصنفات الماتريدي بحسب الحروف الأبجدية

(ب) "بيان وهم المعتزلة".

(ت) "تأويلات أهل السنة" "تأويلات الماتريدية". "التوحيد"

(ج) "الجدل"

(د) "الدرر في أصول الدين"

(ر) "ردّ تهذيب الجدل" للكعبي. "ردّ وعيد الفساق" للكعبي. "ردّ أوائل الأدلة" للكعبي. "رد الأصول الخمسة" لأبي محمد الباهلي. "رد الإمامة لبعض الروافض". "الرد على القرامطة". "الرد على فروع القرامطة". "رسالة فيما لا يجوز الوقوف عليه في القرآن".

(م) "المقالات" "مآخذ الشرائع"

(و) "وصايا ومناجاة أو فوائد"

منهج الماتريدي في إثبات العقيدة الإسلامية

إن الخلاف بين المعتزلة وبين المحدثين من الحنابلة قد اتسع في هذا العصر. فأهل الاعتزال يغالون في الثقة بالعقل، ويقدمونه على السمع ولا يعملون إلا بالمتواتر من الأحاديث. أما أصناف الأحاديث الأخرى فلا يحتجون بها ولا يعتدون. والعقيدة عندهم لا تثبت إلا بدليل عقلي لا شبهة فيه. وإذا ما تعارض الدليل العقلي مع الدليل السمعي، أولوا الثاني لفائدة الأول، وتمحلوا أصناف الحجج لنصرة أصولهم.

وأما أهل الحديث فقد تمسكوا بالنص وأعلنوا أن العقيدة لا تستمد إلا من النصوص الدينية، ومن الأدلة السمعية: الكتاب والسنة والإجماع. ورفضوا الاعتماد على العقل، لأنه طريق غير مؤتمن من الزلل والخطأ. بل لعل بعضهم أعلن ازدراءه للنتائج التي ينتهي إليها.

وإزاء اتساع شقة هذا الخلاف، وما بدا من بلبلة بين المسلمين، ظهر في صفوف أهل السنة مفكرون لرأب هذا الصداع كأبي الحسن الأشعري في العراق، وأبي جعفر الطحاوي في مصر، وأبي منصور الماتريدي في ما "وراء النهر".

فكان هؤلاء الأيمة قد تسلحوا بالنظر العقلي، والصناعة الفكرية، لمواجهة المذاهب المتطرفة في الداخل كالمعتزلة والرافضة والتصدي للغزو الخارجي، كالفلاسفة والملل والنحل المختلفة.

1- منهج الاعتدال عند الماتريدي:

لقد توفق الماتريدي إلى منهج أصيل، فأرضى بمؤلفاته جانبي العقل والنقل في آن واحد.

وقد قال أبو منصور: "أصل ما يعرف به الدين وجهان: أحدهما السمع والآخر العقل".

ولعل السبب في نضج مذهبه، هو أنه لم يكن معتزليا كالأشعري، الذي انشق عن المعتزلة، وبقوة اندفع إلى صفوف المحدثين مما دعا بعض الباحثين إلى القول بأنه كاد يكون حشويا في بدء انشقاقه.

بينما يرى محمد زاهد الكوثري "أن كتب الاشعري قد عثر عليها مخطوطة عند حشوي فمن يدري لعل أقلام التحريف قد لعبت في مؤلفاته؟

كما أن هناك سببا آخر يجعل نتائج الماتريدي ثابتة رصينة هو بعده عن ميدان المعركة الفكرية التي من أجلها استعر الخلاف واشتد. خاصة والسلطان في بيئته يناصر أهل السنة، ويدعمهم ماديا وأدبيا.

2- مكانة العقل عند الماتريدي:

لا تكمن عظمة الماتريدي في دفاعه عن السنة وذبه عنها. فهو ليس أول من قام بهذا الدور، وإنما سر تميزه في الحلول العقلية التي بسطها، وفي الأدلة التي استروحها من المصادر الأصلية، وفق منهج لا يجافي العقل ولا النقل.

وكيف يجافي العقل وهو القائل "إن الله رغب في النظر، وأمر بالتفكر والتدبر، فقال: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) (البقرة/164). (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) (الذاريات/21). وقد التزم الماتريدية من بعده بهذا المنهج. فذكروا أسباب العلم في مستهل عقائدهم، وهي الخبر الصادق ويعنون به الوحي وثانيا العقل وأخيرا الحواس.

والماتريدي لا يجهل حدود العقل الانساني وقدراته، لذلك كان في الأقضية العقدية يعرف دقيق المعرفة متى يجوز للعقل أن يخوض غمارها، ومتى تعجز قدراته عن الحل. فقرر في غير مواربة ولا لبس، ان النقل مصدر من مصادر العلم، والعقل أيضا من المصادر الأساسية في هذا الغرض.

أمثلة لمنهجه:

الحسن والقبح:

وهذه الأمثلة توضح مدى عمق الماتريدي في فهم القضايا العقدية. فالحسن والقبح عقليان عند المعتزلة. أي أن العقل يستقل بمعرفة حسن الأشياء، كما ينفرد بمعرفة قبحها، بمعزل عن الشرع. ألا ترى أن الصدق ممدوح، والكذب مذموم، وكذا العدل والظلم، والكرم والبخل، فهي معان يدرك العقل حقيقتها وبناء على ذلك فالمكلف مأمور بالإيمان، وبإدراك هذه الحقائق ولو لم يرد الشرع، ولم يبعث الله الرسل.

وأما أبو الحسن الأشعري فقد رأى أن الحسن والقبح شرعيان. فالحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه، والرسول مكلف بنقل هذه الأوامر والنواهي. ألا ترى ن القتل بالرغم من أنه مذموم، لكنه قد يكون ممدوحا إذا كان إقتصاصا من مجرم قد اقترف ذنبا شنيعا.

إذا فالقيمة قد ترددت بين صفتين تبعا للظروف والملابسات التي تحف بها. وعندئذ لم يعد من الممكن أن يكون الحسن ذاتيا، والقبح ذاتيا، وإنما تخلعه عليه البيئات والمجتمعات. وما دام الأمر كذلك فلا بد للشرع من تعيينهما، وإصدار الأحكام بشأنهما.

وأما أبو منصور الماتريدي فقد أقر مع المعتزلة، أن للأشياء حسنا ذاتيا وقبحا ذاتيا، وأن العقل قد يستقل بمعرفتهما. كما اتفق مع الأشعري في أن تعيين الأحكام تنفرد به الشريعة، وأن التكليف لا يكون إلا بعد الرسالة.

وإننا عند تحليل موقفه من هذه القضية نراه لم يستطع أن ينكر استقلال العقل بمعرفة قبح الأشياء وحسنها. ولم يجازف بالحكم على أن العقل يلزم المكلف بالفعل ولو لم ترد الرسالة. فكان معتزليا في الأول، أشعريا في الثاني.

وموقف العقل في القضيتين متباين، فهو عند المعتزلة مصدر وحاكم، وعند الماتريدية آلة للبيان، وسبب للحكم. ونتيجة لدقة مواقفه، اختلفت أحكام الباحثين حوله.

منزلة الماتريدي بين الأشاعرة والمعتزلة:

فجولد تسيهر يرى أن آراءه أكثر حرية "عقلية وهو أدنى إلى المعتزلة من الأشاعرة.

واتجه محمود قاسم إلى نفس الرأي مخالفا بذلك ما جرت به الآراء السائدة على حد تعبيره.

وأما من رأى الماتريدي يحتل المرتبة الوسطى بين الأشاعرة والمعتزلة فهم كثير، فمحمد أبو زهرة ذكر "أن منهاج الماتريدية للعقل سلطان فيه، من غير أي شطط أو إسراف، حتى إنه يكاد الباحث يقر أن الأشاعرة في خط بين الاعتزال وأهل الفقه و الحديث، والماتريدية في خط بين الاشاعرة والمعتزلة.

وقد تابع في هذا رأي محمد زاهد الكوثري.

كما ذهب إلى هذا الرأي د. صبحي صالح، وألبير نصري نادر الذي قال "يمكن تقسيم أهل الكلام إلى أربعة أقسام: متطرف في استعمال النقل وهم المحدثون، وقسم متطرف في استعمال العقل وهم المعتزلة، وقسم حاول التوفيق بين الموقفين وهم الأشاعرة، وأما القسم الرابع فقد حاول التوفيق بين المعتزلة والاشاعرة، وهو ما فعل الماتريدية".

وهكذا يتضح أمر الباحثين في شأن منهج الماتريدي، فمنهم من عده قريبا من المعتزلة، ومن بينهم من صنفه في المرتبة الوسطى بين المعتزلة والأشاعرة.

منهج متميز بطابعه الخاص:

وعند تقصي هذا الأمر من خلال آثاره المختلفة يتبين أن أبا منصور كان له منهج أصيل يميزه عن غيره.

ففي الرؤية مثلا ذكر ان الله سبحانه وتعالى "يرى بال كيف، ولا وصف قيام وقعود، واتكاء وتعلق، واتصال وانفصال، ومقابلة ومدابرة، وخارج وداخل، ولا معنى يأخذه الوهم أو يقدره العقل، لتعاليه عن ذلك".

وهذه الرؤية ثابتة بالأدلة النقلية كالآيات والأحاديث العديدة الواردة في هذا الغرض، ولا يمكن أن نثبتها بالعقل، لأنها شأن لا يجوز له أن يخوض فيه. ومن الطريف أن نرى الآيات التي يستدل بها المعتزلة على نفي الرؤية تصير عند الماتريدي دلالة على إثباتها.

وقد استحسن أقطاب الأشاعرة كالرازي وغيره هذا الموقف فأعلنوا أنهم في الرؤية على مذهب الماتريدي لأن الأشعري قد اشترك مع الماتريدي في الأدلة النقلية التي تثبت الرؤية وقد أضاف فضلا عن ذلك دليلا عقليا قد عرف به مفاده: أن كل موجود يصح أن يرى. والله سبحانه وتعالى موجود، فعندئذ تثبت رؤيته

ومن الطريف أن أقطاب الماتريدية قد أخذوا بالمذهب الأشعري في هذه المسألة.

وأما المعتزلة فموقفهم واضح من هذه القضية. فقد نفوا الرؤية، واستدلوا بآيات كثيرة، وأولوا الآيات التي تثبتها، ورفضوا الاحتجاج بالأحاديث النبوية وادعوا وضعها.

وهكذا يتضح أن الماتريدي لم يكن كالأشعري حسبما ذكر فتح الله خليف. ولم تكن حلوله للقضايا الكلامية أقرب إلى المعتزلة المبالغين في التعويل على العقل.

وإنما كان مفكرا سنيا أصيلا، عرف جيد المعرفة حدود العقل وميدانه. فهو تارة يعول على العقل في استنتاج أحكامه، لأن القضية تقتضي ذلك، فيعتقد الباحث أنه أميل إلى الاعتزال. وطورا يستخدم العقل والنقل، فهو في هذه المرة أشبه بالأشعري. ولكنه أحيانا يقتصد في استعمال العقل. بل ربما يحجم عن أدلته كما فعل في الرؤية. فهل يعد سلفيا؟

وجلية الأمر فإن جهابذة المفكرين يعسر تصنيفهم ضمن مدرسة معينة. لأنهم هم الذين وضعوا أسس المدارس الفكرية، والذين استنبطوا المناهج الملائمة لها.

وإذا استقصينا المواضع التي استمسك فيها الماتريدي بالنص، نجدها أقل من المواضع التي كان فيها الماتريدي عقليا، الأمر الذي يجعله قريبا من أهل الاعتزال. ولكن الفروق تبقى قائمة بين الاتجاهين الفكريين. حيث يتميز الماتريدي بنزعته السنية التي تمنح النص قدسيته اللائقة به، وترفض التمحل والاسراف في التأويل لأغراض معينة كما فعلت المعتزلة.

وبالجملة فإن الماتريدي قد أشاد صرح مدرسة أهل السنة، وتزعم الفرع الثاني على أساس النقل والعقل، مستخدما إياهما في غير شطط ولا مبالغة. فكان مفكرا سنيا رائدا قد قاوم الحجة بالحجة، حتى اسكت الخصوم على الساحتين الداخلية والخارجية على السواء.

خاتمة

لقد تبين لنا من خلال دراستنا لأبي منصور الماتريدي إمام أهل السنة، أنه قد قدم خدمة جليلة إلى الإسلام، في تلك الأصقاع البعيدة عن منابعه الأصلية، في جو سادت فيه المناقشات الدينية، واضطربت المفاهيم.

وقد استخلصنا من خلال دراستنا له النتائج التالية:

سلطت مزيدا من الأضواء على البيئة السياسية والاجتماعية والفكرية التي عاش فيها الماتريدي، وضبطت نسبه وميلاده، وتاريخ وفاته.

انتهيت إلى ضبط أساتذته، وترجمت لهم، وانصب اهتمامي على تلاميذه، ورصدت منابع ثقافته ورتبت مؤلفاته حسب المصادر التي وردت أسماؤهم فيها، وبذلت في ذلك غاية جهدي. وأحسب أن أحدا لم يسبقني إلى هذا العمل على هذا النحو، وظني أنه رصد ضروري، لفهم آرائه، ونشاطه الفكري.

اختلف العلماء والمفكرون في منهج الماتريدي، إلا أنه يبدو في كثير من القضايا أقرب إلى المعتزلة من الأشاعرة. فقد جعل للعقل منزلة كبيرة في كثير من المشاكل العقدية المطروحة على الفكر الإسلامي في غير إسراف. وقد يستمسك بالنص أحيانا وبدرجة أقوى من الأشاعرة. ويبدو ذلك جليا في رؤية الباري سبحانه، وفي صفة التكوين. فهو سني متفتح يعرف جيد المعرفة متى يجب الاستمساك بالنص، ومتى يأخذ بالعقل وفي أي المسائل يأخذ بهما معا.

ورغم قرب الماتريدي من المعتزلة فإنه لم يجنح إلى المغالاة في التعويل على العقل، ولم يوجب على الله فعل الأصلح، بل التزم في منهجه وصف الله بالحكمة، لأن الحكيم لا يفعل إلا ما فيه خير وصلاح. وهكذا التزم الماتريدي بالسمع والعقل معا "لأنهما أصل ما يعرف به الدين" حسبما صرح بذلك في مقدمة "كتاب التوحيد".

وقف الماتريدي ضد تيار الإلحاد من المانوية التي طغى نشاطها في آسيا الوسطى، ولربما كان من أهم الأسباب التي دفعته إلى الإفاضة في مبحث الألوهية.

افتن الماتريدي في التدليل على وجود الله، ردا على ملاحدة عصره. وهذه الأدلة يمكن إثراؤها حتى تكون منطلقا للرد على ملاحدة عصرنا. ثم إن ما يشاع الآن من أن دليلي العناية والاختراع ينسبان إلى ابن رشد، ليس صحيحا بل إن أول من خاض فيهما ونبه إلى خطرهما أبو منصور الماتريدي، وفضلا عن ذلك فقد ابتكر براهين طريفة، كدلالة النظام والاتقان والروعة البادية على هذا الكون، ودلالة الشر، وكقوله " من عرف نفسه فقد عرف ربه". وقد انطلق في معظم أدلته من القرآن.

ركز الماتريدي على دفع بدعتي التشبيه والتعطيل، والتدليل على وحدانية الخالق، لأن الإسلام دين التوحيد وبذلك عنون "كتابه التوحيد". ولم يغرق كغيره من علماء الفرق الإسلامية في بحث هل أن الصفات عين الذات أو زائدة عنها، بل كاد يكتفي بما ورد وصفه سبحانه في القرآن وسائر كتب الله على حد تعبيره. ولولا تيار الإلحاد في الصفات الرائج في ذلك العصر، لما لجأ أبو منصور إلى الاغلاق في بحث تفريعاتها. وإن وجد هذا الإطناب، فهو مدفوع إلى ذلك دفعا، كإفاضته القول في صفة التكوين وعدها صفة قديمة. وتوضيح موقفه في قضية الكلام الإلهي، تلك الصفة التي شغلت الفكر الإسلامي، وصارت بسببها فتنة بين المسلمين، غذاها المعتزلة بالفكر والنظر، ودعمها المأمون بالسلطان والسيف. وانتهى فيها أبو منصور إلى رأي يقضي بعدم جواز سماع الكلام النفسي، وإنما يسمع ما يدل عليه كدلالة هذا الكون على وجوده سبحانه.

وأثبت الماتريدي رؤية الله. واكتفى بالمنهج السلفي، ولم يدخل في تفاصيلها وكيفيتها، لأنها شأن من شؤون القيامة. وأما من قاس رؤية الله على رؤية الأجسام، وقال: إن كل موجود يصح أن يرى فهو قياس لم تتوفر أركانه لأنه قياس الغائب على الشاهد. وقد تأثر برأيه في هذه المسألة بعض الاشاعرة كالرازي (فخر الدين).

وانتهى الماتريدي في أمر النبوة إلى أنها ضرورة إنسانية وحاجة بشرية. والأنبياء في الأمم بمنزلة العقول في الأشخاص، والقلوب في الأجسام. وأما ما يدل على صدقهم عنده فظهور أحوالهم طبق صفات تدفع عنهم توهم الشكوك والظنون. فإذا اجتمع مع ذلك وحي يتنزل، ومعجزات تتحدى بآيات باهرة، وضروب من الإعجاز قاهرة، لم يبق بعد ذلك لكافر من حجة أو سبيل إلا حجة الجهل وسبيل الهوى.

وفي أفعال العباد يثبت الماتريدي "الاختيار" للإنسان، وتأثير القدرة الإنسانية في الفعل، وصلاحها للضدين، وهو لا يرتضي موقف المعتزلة الذين وسعوا في مجال الحرية الإنسانية، وينكر على الجبرية اتجاههم الى نفي القدرة عن العبد، كما أن موقفه يغاير "كسب"الأشعري.

وليست هذه القضايا المتنوعة التي أثارها، منبتة عن الواقع الاجتماعي، والصراع السياسي مجردة عنه، بل كانت متصلة به اتصالا وثيقا. وهكذا فإن الماتريدي مؤسس مدرسة قائمة الذات، لها جذورها وأعلامها وخصائصها، وقد امتازت بعمق الفكر، وبقوة الأدلة فأنتجت ثمارا عقليا من أروع نتاج العقل الإسلامي للدفاع عن العقيدة الإسلامية.

وبعد، فقد حاولت في هذا البحث ان اكشف القناع عن آراء علم شامخ من أبرز أعلام أهل السنة، وأظهرت ما فيها من وضوح الحجة، وساطع البرهان، وما اتسمت به من إيناس مشرق، وحلول طريفة، لقضايا عقدية عسيرة المنال.

فأرجو أن أكون قد أسهمت بقدر، في توجيه الأنظار إلى أبي منصور الماتريدي وتجلية الغموض الذي يحيط بشخصيته وبآرائه.

والله ولي التوفيق.